مجلة الرائد

العدد : ٢٤٢ الموافق في ربيع الأول ١٤٢٤ هجري ٢٠٠٣/٤ ميلادي

عنوان المقال :دروس من الماضي: ما أشبه اليوم بالأمس!!	الكاتب :د.أحمد فوزي

{ ... تمكن المماليك الذين حكموا بعد الأيوبيين في سورية ومصر أن يطردوا الصليبيين من بلاد الشام ، وأن يصدوا تيار الغزو المغولي الجارف وأن يستنقذوا من براثنهم بلاد الشام ، وأن يحيلوا مدهم إلى جزر ولقد استمر الغزو المغولي لبلاد الشام فترة طويلة وعلى شكل موجات متتابعة تفصلها فترات زمنية . ولقد اندفع المغول بشكل شلال متدفق من الحمم ، قذفها على سطح الأرض بركان ثائر ، وهاجموا بلاد الشام التي كانت ضعيفة ومنقسمة بين عدد من الحكام . ولقد رافق الهجوم المغولي على بلاد الشام انقضاء الحكم الأيوبي في مصر ، وقيام الحكم المملوكي ولقد رافق هذا التغيير في الحكام اضطراب ساعد في تقدُّم الغزاة في بلاد الشام . ولم يكن بين حكام بلاد الشام من هو قادر على الوقوف في وجههم . فصاحب حلب الأيوبي الملك الناصر كان قصبة مرضوضة ولم يكن أهلاً للوقوف في وجه المغول ، ولا سيما بعد أن شاعت وذاعت في الخافقين أعمالهم الإرهابية : ذلك أن المغول أسروا النفوس وزرعوها خوفاً وهلعاً ، واعتقد معاصروهم أنه لا يمكن الوقوف بوجههم بحال من الأحوال - بله التغلب عليهم - ولقد زحف المغول على بلاد الشام والناس يعتقدون هذا الاعتقاد . وتدل الرسائل التي أرسلها هولاكو إلى الناصر الأيوبي صاحب حلب على شخصية متغطرسة للحكم والاستبداد ، وأن جزاء المخالفين هو جزاء أهل بغداد وحكامها ، وأن ما أحلّوه ببغداد وأهلها وحكامها إن هو إلا انتقام إلهي لسوء سلوكهم وطغيانهم وجبروتهم ، ويحذره ويحذر أهل حلب مغبة المقاومة اللامجدية ويطلب إليهم الاستسلام ، وذلك بعد أن صور له ما حل بالعصاة وما فعلوه بالأنفس والأموال والأولاد والبلاد والعباد . فأغلب رسائل المغول من هذا الطراز: الغاية منها تحطيم روح المقاومة لدى الخصم ، وفتح النفوس قبل فتح البلاد والأجساد .

ولم يتمكن الملك الناصر من الوقوف في وجه جيوش هولاكو وكانت النتيجة احتلال المغول بلاد الشام بأغلبها ، وفعلوا بها الأفاعيل . وبدأوا يتهيؤون للزحف على مصر . وقد حدث آنذاك أن انقضى الحكم الأيوبي في مصر وافتتح العهد المملوكي فيها السلطان الملك المظفر قطز رحمه اللّه . وكان حكمه بداية عهد جديد في تاريخ الشرق ، وبشكل خاص في تاريخ الغزو المغولي للعالم الإسلامي . ذلك أن في عهد هذا السلطان القصير تحول المد المغولي إلى جزر وهزم المغول لأول مرة في تاريخهم ، وأدرك الناس أن هؤلاء الهمج يمكن قهرهم ، وأنهم قهروا بالفعل وقتلوا وشردوا ، واسترجع المماليك منهم بلاد

الشام بأسرها ، وزال ذلك الوهم الذي ركب النفوس ، وتمكن الملك قطز وأنصاره أن يحرروا نفوس البشر من الخوف من المغول قبل أن يحرروا البلاد ، وكان انتصارهم العظيم في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ فاتحة سلسلة من المعارك خاضوها ضد المغول وحطموا أسطورتهم وكبرياءهم وقواهم ، وطهروا بلاد الشام منهم ، وأنقذوا الإسلام والمسلمين من شر وبلاء عظيم . وعاد دين الإسلام غض الإهاب ، ولذلك حق اعتبارها من المعارك الفاصلة في التاريخ ، وحق تقدير الأبطال الذين خاضوها وتمكنوا أن ينزلوا الهزيمة بأوحش جيش عرفه التاريخ يغزو هذه البلاد } .

(١) عن كتاب دراسة وتقيم للتاريخ الإسلامي : د. محمد ماهر حمادة